الفصل السادس

الصراع بين الأمة و الاستعمار

3.2: الصراع بين الأمة و الاستعمار

عندما نزح العرب من سوريا ولبنان إلى القارة الأمريكية تسللًا أو جماعات تهريبًا على ظهور السفن مسافرين عاديين أو هاربين، نزحوا يحملون كل هموم الوطن الذي ولِدوا على أديمهِ أو درجوا على ساحله وجبله و وديانهِ، وعندما دفعت بهم مراكب النزوح إلى سواحل العالم الجديد هبطوا منها وهم محَمَّلون بالهَّم والوجع والهاجس.

(وكما هو معلوم شهد أواخر القرن التاسع عشر الميلادي زمن ميلاد الأوائل من شعراء المهجر، وكان مفهوم الوطني تجسد في أحاسيس شعراء المهجر، ثم تحول فيما بعد إلى فكر منظم، فالشعر الوطني الذي يعالج شئون الأوطان الأولى للشعراء، ويصور في دار الهجرة آمال بلاد المهجر راصدًا، يعلق عليها، ويستخرج العمدة منها)[1].

يقول برناندرسلي : (الرومانتيكية هي طريقة للإحساس أثرت منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى يومنا هذا فالفن والأدب والفلسفة بل والسياسة)[2].

وكانت الفلسفة السياسة في تلك الفترة موصولة بفلسفة عصر الأنوار، كفلسفة روسو وفولتير ومونتيسيكو وما فيها من مدَدْ إنساني قامت على أصوله مبادئ الثورة الفرنسية، وكان شعراء المهجر متأثرين بهم وبفلسفتهم في الحياة، وفي الوقت نفسه كان جبران وغيره من الشعراء على صلة وثيقة ببعض الشعراء الأمريكيين وشواعرهم في ذلك الحين، إلا إن كثير من الباحثين يقولون إن شعراء المهجر تأثروا بالنزعة الرومانتيكية الأوروبية، ولكن الدكتورة نادرة السراج تقول في كتابها شعراء الرابطة القلمية: (وأنا أسلّم بوجود بعض الشبه بين المدرستين في المبادئ والأفكار عمومًا، ومع ذلك فأنا لا أرجع بعيدًا إلى عهد الرومانتيكية الأوروبية التي طغت على الأدب الغربي بعد الثورة الفرنسية، بل أجد هذا أقرب من هذا بالنسبة لشعراء المهجر إلى الأدب الذي كان متأثرًا بتلك الرؤية القوية التي ظهرت على أيدي إمرسين (1803-1884) وغيره من الشعراء الذين نزعوا في شعرهم نحو مذهب (الترانسننتلزم) (Transcendentalism)، ومعنى هذه الكلمة العناية بكل ماهو روحي

---

[1] - المهاجرة والمهاجرون دراسة في شعر المهاجرين إلى القارة الأمريكية، د. خالد محيي الدين البرادعي، ص71، المجلد الأول، منشورات وزارة الثقافة- دمشق، سوريا، 2006.

[2] - Berrnad Russell, A History of western Pilosophy, p 676, 1945, NEWYORK.

والسمو بالروح إلى آفاق علوية، ومعاونة كل من يعيش بالروح)[1]، وما يهمنا هنا أن شعراء المهجر كانوا متأثرين بمبادئ الثورة الفرنسية، حيث إن القانون الطبيعي عندهم يقتضي أن يعيش الناس في أمة، وكان الوطن عند فولتير كيانًا معنويًّا يعلو في وجوده على أية ملكية خاصة أو سطوة دينية، وهذا الشعور بالانتماء إلى الوطن لايرتبط بمقدار الفائدة الشخصية التي يجنيها منه بل بالفائدة العمومية لكيان هو أكبر من مجموع أجزائه؛ هو الأمة أو الشعب المتمثل في الوطن، (وعندما يجتمع أولئك الذين يملكون حقولًا ودورًا للبحث في مصالحهم المشتركة فإنه يكون لي صوت في هذا المجلس فأنا جزء من كل جزء من المجموعة، جزء من الحقيقة ذات سيادة، وهذا هو وطني)[2].

وتمتد مشاهد الصراع مع امتداد الحركة الأدبية على مدار العصور، ويصيبها من التغير والتحول ما أصاب الشعر ذاته فنًّا جماليًّا، وإذا بالجانب السياسي يطرح أبعادًا جديدة في بيئات الشعر[3].

وكان القاسم الجامع في حبّ الوطن والأمة بين شعراء المهجر هو النزعة الرومانتيكية الواقعية في أدبٍ هادف تفكيرًا وتعبيرًا لخلق أدب حر قوي يعنى بالمعاني والأفكار الكبيرة، ولا يتقيّد بالسفاسف التي تكبّل أجنحته دون التحليق والسمو، وتمجيد الإنسان وحضارته. وعكست الآثار الأدبية للحركة المهجرية إيمانها بالقيم والصفات الإنسانية الخالدة والفنية الجمالية والتقاليد التي تعطي الحياة معانيها وقيمها، وتمجيدها للخيال الفطري الذي لم تلوثه المادية والمدنية الصناعية الحديثة، الذي يتّصل بالأرض الطيبة والفلاحين وأهل القرى من مواطنيهم وثرى الوطن الحبيب، على عكس الحضارة المادية التي تسعى إلى هدم كل أنواع الطقوس والمراسيم ذات المدلولات والمعاني المهمة التي تعكس ترفّهم عن كل مبتذل ورخيص، وسخطهم الشديد على كل ما تخرجه عقول السوقة للنيل من العقل وطهارته.

لأن شعراء المهجر نزحوا من وطن يغلي بالإشكالات والتحولات ويضج بالعديد من التيارات، ولأنهم شرائح من هذا الشعب الذي يعيش تلك التحولات ويشارك في دفع أو تقليص تلك التيارات، كان من الطبيعي أن ترحل معهم كل تلك الهواجس الحضارية

---

[1] - شعراء الرابطة القلمية، د. نادرة السراج، ص98.

[2] - أمين الريحاني، مختارات و دراسات، د. ميشال خليل جحا، 320.

[3] - ينظر أشكال الصراع في القصيدة العربية المرتكزات الكبرى وصيغ التحول، د. عبدالله التطاوي، ص31، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2004.

والسياسية والمتعاكسات الاجتماعية بما فيها اللعنة الطائفية التي قام بها المحتلون كما غذاها المتربصون وراء البحار.

(بحيث لم يقتصر حُب شعراء المهجر لوطنهم على الحنين إليه فحسب، بل كانوا يصورون هوان أنفسهم ببعادهم عن الأرض التي أنبتتهم، كما يصورون هوان وطنهم بسبب الاستعمار، ويفصلون القول في العلل التي أنهكته وجعلته يتردى برداء الذل، وهم بعد ذلك يستنهضون من عزمته، وينشدون له الأناشيد الحماسية المتدفقة، ليثيروا نخوته ويبرزوا شوكته)[1].

ولعل أبرز ميزات الشعر المهجري أن الشاعر يعبر عن إحساس قومه ومشاعرهم، مثلما يعبر عن إحساس نفسه ومشاعرها، وأن الأحداث التي تمر في وطنه الأم تترك صداها العميق في قلبه وشعره معًا، وللشعراء المهجريين في جميع القضايا الوطينة، وفي ثورات الحرية وفي نضال الوطن العربي ضد الاستعمار، وفي شهداء العرب ملاحم خالدة، ولديهم قصائد ساحرة[2]. بحيث نرى كل التيارات السياسية التي ظهرت في الشعر في تلك الفترة ظهرت وبصورة أوضح في شعر المهجريين، ونتلمس جملة الظواهر الفنية والفكرية في شعرهم، التي كانت أوسع تصورًا، وأعمق تحمسًا وأكثر تحررًا في التعبير عنها ورسمها مما ظهرت به في الشعر الوطني، فظَلّ الوطن نشيد غربتهم وملاذ أشواقهم، فلا تجد منهم من لم تظهر بصمات الوطن في أدبه بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وهم وإن اتفقوا على الحنين إلى وطنهم، فإنهم اختلفوا في وسيلة التعبير، (فالشماليون بخاصة جبران وميخائيل نعيمة جاء تعبيرهم عن الوطن تعبيرًا فنيًّا، فهم لم يناجوه بأنفاس صارخة ملتاعة فيها حرقة المغترب وعفوية المشتاق، ولكنه امتزج بانفاسهم وفنهم فجاء أدبهم من وحي أجوائه وظروفه السياسية والثقافية والاجتماعية)[3].

(وما سقطت دمعة من مواطن عربي، في وطن الأم إلا وسالت أغنية حزينة، وفي مقطوعة شعرية لشاعر مهجري، وما زفر حزين، في المشرق العربي ، إلا وكان لآهته وزفرته صدى عميق مؤثرفي الشعر المهجري)[4].

---

[1] - التجديد في شعر المهجر، د. محمد مصطفى هدارة، ص100.
[2] - ينظر قصة الأدب المهجري، د. محمد عبدالمنعم خفاجي، ص35.
[3] - أدب المهجر، د. صابر عبد الدايم، ص102.
[4] - قصة الأدب المهجري، د. محمد عبدالمنعم خفاجي، ص35.

(ولكن رؤية الرومانتيكي العربي لقضية أمتهِ، لم تبق سجينة الموقف العاطفي المحدود، بل تجاوزته للنظر في كبريات المشكلات والقضايا التي كانت مطروحة، ولمحاولة معالجتها، وما من شك في أن وضعية الاستعمار والتخلف التي كانت عليها سوريا ولبنان خلال العقود الأربع الأولى من القرن الماضي، قد هيأت مادة وفيرة للرومانتيكي العربي لكي يتناول هذه الوضعية المتردية بالدرس والتحليل ولكي يقدم لها حلولًا ناجعة)[1].

فهذا إيليا أبو ماضي يعلن في ديوانه (الخمائل) أن مأساة فلسطين حَرَّمت النوم على أجفانهم في المهجر، فكأن السيوف كانت تحز بأكبادهم:

ديارُ السَلامِ، وَأرضُ الهَنـــا يَشقُّ على الكلّ أن تحزنـا
فَخَطب فلسطين خَطبُ العـلى وَمَا كَـان رزء العُلى هَيّنـا
سَهَرنا لَهُ فكأنّ السُـــيوفَ تَحـزّ بَـــأكبادنا هيّنا....
وكيف يزور الكرى أعيننـــا ترى حولها للردى أعينا؟

***

أَ أرضُ الخَيـالِ وآيَاتـــــهِ وَذاتُ الجَلالِ، وَذات السنا
تَصيرُ لِغَوغائِهِمْ مَسْرَحـــًا وَتَغْدوا لشذّاذهم مَكْمَنـا[2]

وقصائد إيليا ثورية جاءت أول عتاب على أبناء بلاده ودعوتهم إلى الحياة ونبذ الجمود، وإلى التشبه بأحرار العالم كالأمم الأخرى. ويرى الشاعر في سكوت قومه مأساة كبرى، فهم لم يخلقوا لغير العز لكن حاضرهم خال منه، مليء بما يخجل ويبكي، ويدعو الشاعر إلى السلم وإلى الثورة معًا، ويؤمن بالسلم وسيلة لرقي الحياة ويدعو إلى ثورة فيقول في قصيدة (في الليل):

أمن أجل أن يَسلمَ الوَاحـدْ تَطـلّ الدِّمَاء وَتَفْنـى الألوف؟
وَيَزْرَعَ أولاده الوالـــــد لِتَحصدَهم شَفَـــواتِ السّيوفْ
أمورٌ يُحَارُ بِها النَـــــاقد وَتدْمِي فُؤادَ اللّبيب الحَصِيـفْ
فَيَا لَيْتَ شعرِي، مَتى نَفْهَم مَعَـانِي الحَياة وَأسرَارِهَا؟[3]

---

[1] - أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي وأهم المؤثرات الأجنبية فيها ، فؤاد فرفوري، ص167.
[2] - الخمائل، إيليا أبو ماضي، من (قصيدة فلسطين)، ص378.
[3] - ديوان إيليا أبو ماضي، تقديم زهير ميرزا، من قصيدة (في الليل)، ص277.

والثورة هذه تتكر في قصائد عديدة منها (الشاعر والأمة) حيث يخاطب الشاعر قومه أن عدم شجاعتهم جلب لهم الذل وسبَّب لهم ظلم الغريب، محملًا إياهم تبعة تخاذلهم:

لَوْ فَعَلْتُمْ فِعْلَ أجدادِكُـــــم مَا قَضَـــى الـظَّالمُ منكم وَطرَهْ
مَا لَكُم تَشْكونَ من مُحْتَكِم رُضتُم ألـــسِنَكُمْ أنْ تَشْكُـرَهْ[1]

ويخاطب إخوانه العرب في عهد الخلافة العثمانية فيقول:

وَ جَعلتُمْ مِنكمُ عَسْكَـــــرهُ وَحـلفُتمْ أَنْ تُطيعوا عَسْكَـرَهْ؟
كَيْفَ لايَبْغي وَيَطْغَى آمـرٌ يَتَّقـــــي أشجَعُكُمْ أنْ يَنْظُرَهْ؟
مَا اسْتحَالَ الهِرُّ لَيثًا إنّمـا أُسُـــدُ الآجامِ صَـــارَتْ هِرَرَهْ
وَإذا اللَّيثُ وَهَتْ أَظفـــارَهُ أَنْشَبَ السِنَّوْرُ فِيهِ ظُفرَهْ!![2]

بعد ذلك يذهب إلى الإيمان بأن الحرية أفضل ما في الوجود، وليس من قيمة قبلها، أو فضيلة تفوقها رتبة وأهمية، وتراه يثور فينكر أخوة الذين لايؤمنون بها معشوقة مبتغاة:

مِثلَما يَكمُنُ اللَّظَى في الرَّمَادِ هَكذا الحُبُّ كَامِنٌ في فـؤادي
لَسْتُ مُغرى بِشَـادنٍ أو شَادِ أنـــــــا صَبٌّ مُتَيَّمٌ بِبِـلَادي
يَـا بِلَادي عَلَيْكِ ألفُ تَحيَّهْ

***

كُلَّ شَـــيءٍ في هَذهِ الكَائِنَاتِ مِنْ جَمـــــادٍ وَعَالَمٍ وَنَبـاتٍ
وَقَديمٍ وَحَـــــــاضِرٍ أو آتٍ صَائِرٌ للـــزَوالِ أو لِلْمَمَـاتِ
غَيْرَ شَوْقي إليكِ يَا سوريَّهْ

***

كُنْ نَبيًّا يَسْتَنْزِلُ الإلهامـــــا كُنْ مَليكـــًا يُصَدِّرُ الأحكامـا
كُنْ غَنِيًّا، كُنْ قَائِدًا، كُنْ إماما كُنْ حياةً،كُنْ غِبطَةً،كُنْ سَلامـا
لَسْتَ مِني أو تَعشَقَ الحُرّيَّهْ!![3]

---

[1] - ديوان إيليا أبو ماضي، من قصيدة (الشاعر الأمة)، تقديم زهير ميرزا، ص430.
[2] - السابق، ص431.
[3] - السابق، من قصيدة (يا بلادي)، ص266-261.

ولعل أنات هذه الأمة العربية أيضًا هي التي أوحت إلى إيليا أبو ماضي أن يقول:

فَكّرتُ فَيما نَحْنُ فِيهِ كَأمّـــةٍ وَضَربْت أخماسي إلى أسْدَاسِـي

فَرَجعتُ أخيبَ مَا يَكون مؤملٌ رَاجٍ وأخسرَ مَا يَكون الخاسي[1]

ولتحقيق الحرية والخروج تحت سطوة الاستعمار اختلفت السبل لدى شعراء المهجر من شاعر إلى شاعرٍ آخر، فمثلًا نسيب عريضة أراد أن تتحقق الحرية لا عن طريق سفك الدماء وإزهاق الأرواح، بل اختار طريقًا آخر هادئًا مسالمًا، سلاحه الوحيد هو الحق والفكر، فيقول :

فَلنسِر في الظلامِ في القفرِ، فـــي الوَحشة في الوَيلِ في الطريق المُجاهد

فَلنسِر أعزلَينِ إلاَّ مِن الـــــحَقّ سِلَاحَـــًا وَ الفِـكر حـــــادٍ و قـــائـد

وَإذا اشتدَّت الذئـــــابُ عُـــواء فَنُقـــابِـــل عُواءَهـــا بالنَشـــــائـد

وَإذا احلَولَك الظلام أضـــــأنـــا مشعَـــــلَ القَـــلبِ مثلَ نار المَواقد[2]

أما في قصيدة (النهاية) فنحس أنه يثور بالغليان الذي يفور في دم الشاعر، ونلحظ الثورة المتأججة في نفسه، إنها صرخة غضب، فيقول:

كَفِّنوهُ.....

و ادفنوهُ.....

أسكنوهُ....

هوَّةَ اللَحْد العَمِيق

وَاذْهَبوا، لاتندبوهُ، فَهو شَعبٌ

مَيتٌ، لَيْسَ يُفيق

ذَلّلوهُ قَتّلوهُ حَمَلوهُ

فَوْق كُلَ مَا يُطيق

حَمل الذُّلَّ بِصَبرٍ مِن دهورٍ

فَهو في الذُّلِّ عَريق

---

[1] - الخمائل، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (لم يبق غي الكأس)، ص288.

[2] - كما ورد في موازنة بين شعراء المهجر الشمالي وجماعة أبوللو، د. بوجمعة بويعيبو، ص209، نسيب عريضة، الأرواح الحائرة، نسيب عريضة، من قصيدة (يا أخي)، ص43.

هَتكُ عَرضٍ نَهبُ أرضٍ شَنقُ بَعضٍ

لَمْ تُحرّك غَضَبَه

كُلُها فِينا وَلَكن لَمْ تحرّك سَاكنًا إلا لِسان[1]

إن نسيب عريضة في هذه القصيدة بلغ ذروة في سخطه على بني قومهِ من جزاء استكانتهم وخضوعهم للأمر الواقع.

(ثم يصور أعمال المحتلّين الطغاة، ويذكر في الوقت نفسه هذا الشعب بما يقوم به هؤلاء المحتلون من هتك للأعراض ونهب للأرض وشنق أبناء أمتهِ، أليس كل ذلك كافيا ليحرك غضبه ويثور لنفسه ليضمن حق البقاء وعزة النفس، ويحث نسيب عريضة أبناء قومه المقيمين في المهجر للنهوض ومحاربة الخطر الذي يحوم حولهم، لا أن يكتفوا باللسان فحسب)[2]، ويعلن ثورته على الغاضب المعتدي، وينادي بني وطنه بأن يتأهبوا للأخذ بالثأر واستعادة الحقوق المسلوبة من قبل الاستعمار:

يَاشَاعر الأوْطارِ خلّ الهيامْ

***

واصْنَع مِنَ الأوْتارِ

قَوْسًا لأخْذِ الثَّارِ

واخْلَعْ قَميصَ العَارِ

والْبس رَدا الجَبّارِ

ثَاراتنا شَتَى عِندَ الزَمَانِ

لاَتمحَى حَتَى نَأبَى الهَوَان[3]

ولم يستطع المهجريون أن يقفوا و يروا سورية ولبنان يرزحان تحت ظلم الاستعمار وغطرسته، وقد أبدى الشعراء نقمتهم على السلطة الحاكمة فهذا رشيد أيوب يقول:

جَرّدوا السيفَ فَقَد مَلّ الـقَلَم خُلـــقَ السَيفُ لِتَحريرِ الأُمَـمْ

---

[1] - كما ورد في نسيب عريضة ، د. نادرة السراج، ص86، الأرواح الحائرة، نسيب عريضة، ص66،65.

[2] - موازنة بين شعراء المهجر وجماعة أبوللو د. بوجمعة بويعبو، ص27.

[3] - كما ورد في موازنة بين شعراء المهجر الشمالي وجماعة أبوللو، د. بوجمعة بوبعيو، ص278، الأرواح الحائرة، نسيب عريضة، ص81.

وَاجتنوها فرصَةَ الدهرِ التي ... لـــــَيس يجديكم إذا فاتت ندم
يا أُصَيْحَابي الألى قد رَتَعُـوا ... في بلاد الظلم حيثُ الجورعم
وأُباة الضيمِ أرباب النهـــى ... ومن اختصّت بهم تلك الشيَم
كلما فكّرتُ فيكم هاجنـــــي ... ألـــــــمٌ في طيّ أحشائي ألمّ
قَطّبَ الدهرُ مُحَيّاهُ بِكُـــــم ... ولكم لـــو شئتمُ الدهرُ ابتسَم
فاستفيقوا إن طمحتم للـعُلا ... إنما نـــال العُلا مَن لم ينَم[1]

يقول الدكتور محمد مصطفى هدارة في كتابه التجديد في شعر المهجر: (ولعل خير ما يمثل هذه الخطوة التجديدية في حياة الشعر العربي من جعله تعبيرًا صادقًا عن رغبات شعب، وآمال أمة، وتسجيلا دقيقًا لآلامها وما تلقاه من عنت وجور واضطهاد وما يشيع فيها من فساد وسوء نظام)[2].

ويأتي جورج صيدح في طليعة هؤلاء الشعراء؛ إذ شارك في كثير من المؤتمرات الوطنية، ودعا إلى نبذ التعصب، والأخذ بروح التسامح، ومن أشهر قصائده الوطنية، قصيدته الموسومة بـ (أم النسور):

أمْ النـــسُور تَفرّسي وَتَأمَلِـــي ... أعَرفْـــــت وَجهَ القَادم المُتَهَلِلِ
هَذا فَتَـــاك إلى مَتى نُكرانِـــه ... أوَلَـــيْس فِي لَبد سِمات الأجْدَلِ

***

عَادَ الزِمامُ إلى يديكِ بِعَــودَتــي ... حَاشَاكِ يَا وَطني ترد السهمَ لي
وَأنا الذْي قَرّبتَ رُوحي لِلحَمــى ... وَسَــجدَت في مِحْرَابِهِ وَالهَيْكَلِ
بِدَم الشَبَابِ خَضبتُ وَردَ رِياضَه ... وَرَجعتُ أغْسلهَا بِدَمعي المسبَلِ
مَا زلْتُ أستجْدِيهِ حَتى رَقَّ لِـــي ... بَردي وَمدّ ذراعَهِ فِي الجَدْوَلِ[3]

ومن شعره الوطني أيضًا نقتطف هذه الأبيات من قصيدة (القطيعة):

حَلِلْ الحُبّ مَا التَعَصب حرَّم ... فَـــــاتَحْدنـــا وَمَا خُلقنا لِنَقسمْ

---

[1] - الأيوبيات، رشيد أيوب، من قصيدة (سوريا)، ص62.
[2] - التجديد في شعر المهجر، د. محمد مصطفى هدارة، ص103.
[3] - كما ورد في أروع ما قيل في الوطنية، د. يحيى شامي، ص 18، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، بيروت،1993. ديوان نبضات، جورج صيدح، ص33.

وَاعْتَنقنَا دِينَ العُروبَـةِ دِينًا واطْرَحْنَـــا لـزُومَ مَا لَيْسَ يَلْزمْ
شَرَعٌ مَجْدُنا سَواءَ نُسبنـــا أزر صِنَين أوْ نَـخِيـــل المقْطّمْ
بَيْنَ لُبنانِ والشآمِ لبـــانٌ رَضَعـــــاهُ وَلـمْ يَزل يَتَوحّمْ
مَا بَنَاهُ علوجُ عَهْد اِنتَـداب كَيْفَ تَبنِيه دَوَلةُ الخَال وَالعَمْ[1]

(وهذا إلياس فرحات يدعو العرب من مهجره البعيد في أجمل أشعاره، صادق العبارة، خافق النبرة وجياش العاطفة، كاد أن يدفع حياته ثمنًا لمواقفه الجريئة مع الأمة العربية، ولإيمانه الراسخ بتحرير الوطن العربي من نير الاستعمار والاستعباد)[2]:

مَوْطِنِي مُنْبِتُ الرِمَاحِ وَقَوْمِي مَوْرِدُوهَا الأضْلاعَ والأصْلاَبَا
وَهُمْ الضَاربونَ فِي كُلِ صَقَعٍ لِلْمَعـــالي وَلِلمَعَاني قبابَا[3]

ويصور فرحات آلام أمته فيقول:

إنَّ فِي أضْلاَعِنـــا مِمّـــا جَنـــى الـــدَهْر سَعيرا
نَحْنُ أملُنا كَثيـــــرًا فَتَـــــألمْنَا كَثيرا
وَرَجْونَا المَجْدَ تَاجَـــا فَحَملنَـــا الذُّلَ نيرا
بَاعَنا السَوَاس أغْنَامًا وَسَاقونَـــــا حَمِيرا
أطْعَمُونَا الصَبْرَ فَجَـــا وَسَقونَاهُ عَصِيرا[4]

وإن فرحات لم يكن همه وطنه فحسب بل كل الأمة:

مَا الشَام مَا لُبْنان مَا حُورانْ مَا عَمَانْ مَالقُدس الشَريفْ الخَالدُ
هَذي الدُويْلاَت المُبَعْثَرة القوى عَمد يَقومُ بِهِنَ بَيْت وَاحـــدُ[5]

ثم يقف في سان باولو مخاطبًا فرنسا التي استعمر لبنان فيقول:

حَارِبِي الحَقَّ وَاقتُلي الآدَابا إنَ فِي ذِمـةَ الزَمَانِ الحِسَابَـــا

---

[1] - كما ورد في أروع ما قيل في الوطنية، د. يحيى شامي، ص18. ديوان نبضات، جورج صيدح، ص33.
[2] - السابق، ص20.
[3] - كما ورد في التجديد في شعر المهجر، د. محمد مصطفى هدارة، ص106، ديوان فرحات، ص14.
[4] - السابق، ص101، مجلة الحديث سنة 1948.
[5] - كما ورد في العصبة الأندلسية، د. نعيمة مراد، ص133، من ديوان الصيف، إلياس فرحات، ص106.

يَا ابْنَةَ الغَرْبِ لَنْ تَرَىْ بَعْدَ هَذا اليَوم فِي المَشْرقِ إلاَ ضَبَـابَـا
يـَـــا دِمَشق الثَّكْلى دَعْي الحُزْنَ للمُسْتَسْلِمِينَ المُقْبِلينَ التُرابَا
قَدَست أرْضَك الدِمَاءُ التي سَالتْ عَليها وَأوْدَعتْها مَلاَبَـــــــا
فَغَدا الشَعبُ فِيك أسمى مِنَ الأرْز الذي شَقّ السَمَاءِ السَحَابَا[1]

ويقول بحق شهداء ميسلون:

بُقْعَةٌ فِي الأرْضِ نَالَتْ شَرَفًا رَفَعَ السَهل عَلى أرْفَع قمّـــهِ
لَوْ أخَذْنَا المَجْدَ مِن تُرابِهـــا وَنَثَرْنَاهُ عَلى السكُونِ لِعَمّه[2]

كان حس الشعراء المتوهج بالنزوع القومي إذن يتحرك على ألسنة الشعراء الرواد في أوائل القرن الماضي على محورين؛ محور عربي ومحور عربي مهاجر، ويبكي فوزي المعلوف هوان أمته الذي أدى إلى هوانه في غربته، يقول:

أَنَا الغَرِيبُ فَلا أَهلٌ وَلَا وَطَـنٌ إذَا انْتَسَبْتُ أَمَـــــامَ النَّاسِ وَانْتَسَبُوا
وَلَا لِوَاءَ إذَا دَقَّ النَّفيرُ مَشَى يَحْمِيهِ مِنْ صِيدِ قَومي العَسْكَرُ اللَّجِبُ
وَمَنْ يَكُونُ غَرِيبًا فِي مَوَاطِنِهِ لَابِدْعَ إنْ أَنْكَرَتْـهُ الأَرْضُ وَالشُّهُبُ[3]

ويقول في قصيدة (الأهل أهلي والبلاد بلادي):

أَشْتَاقُهُ شَوْقَ المُحبّ إلى الهَوَى مَهْمَا يَكُنْ فِيهِ مِـــنِ اسْتِبْدَادِ
وَأُحِبُّهُ بِالرغْمِ عَمَّـــــــا نَالنِي مِنْهُ وَأُمضِحُـهُ صَحِيحَ وَدَادِي
مَهْمَا يَجُرْ وَطَنِي عَلَيَّ وَأَهْلُـــهُ فَالأَهْلُ أَهْلِي، وَالبِلَادُ بِلَادِي[4]

(وممن اشتهر بالشعر القومي من شعراء المهجر الشاعر القروي وإلياس فرحات، وشكر الله الجر، الذي خصص ديوانًا مستقلاً أسماهُ (على مذبح الوطنية)، ولعل أكثرهم حماسةً في هذا الباب هو رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) الذي يصرح في مقدمة

---

[1] - كما ورد في قصة الأدب المهجري، د. محمد عبدالمنعم خفاجي، ص37.
[2]- السابق، ص37.
[3] - ديوان فوزي المعلوف، من قصيدة (الغربة في الوطن)، ص49.
[4] - السابق، من قصيدة (الأهل أهلي والبلاد بلادي)، ص 9.

ديوانه الضخم بأن آفات أمته قد حكمت مسمعه، فطوى جناحهُ عند سريرها، مخاضًا لواقعها الأليم)[1].

فقد عاصر الشاعر القروي مرحلة تفتح الوعي القومي عند العرب، حيث عرّف بالوطنية وبنشوء الفكر القومي العربي والأمة العربية وتفتحه في القرن التاسع عشر، وصولًا للحديث عن الحركة القومية العربية وظهورها وامتداداتها في القرن العشرين.

ويذكر الدكتور عيسى الناعوري رأي جورج صيدح في كتابه (إلياس فرحات شاعر العروبة في المهجر) فيقول: (هو الشاعر المهجري الوحيد مئة بالمئة، لم يزوده الوطن بفتات من العلم، وهو قد زود وطنه بوليمة من الطيبات الباقيات)[2].

كان شاعر المهجر مؤمنًا بأنه ابن وطن مهيض في حاجة إلى عونه، وكان يجد المحبة العميقة لهذه الأمة، والانفعال الحار بكل آلامه وأمانيه، ويستنهض هذا الشاعرالكبير رشيد سليم الخوري المتحمس همة أبناء أمته فيقول:

لَمْ يَبقَ غيرُك في الورى مُستبعدًا ... لَـــــمْ يَبْقَ غَيرُك أيُّها اللبْنَاني

***

أَوَ ليسَ في لبنانَ عِرقٌ نَابِــضٌ؟ ... أَوَ ليـــسَ في لبنان مِن مُتَفانِ؟
أَينَ التُّراثُ تُراثُ أبطال الحمـــى ... أين البَقيّـــــةُ من بَني غَسّانِ؟
لَاتُنكروها فَالدمُ العربيّ قَـــــد ... جَلَّت أصَالَتَهُ عَن النُكْـــــــرانِ
إنَ البزاةَ وإنَ تَناثر رِيشُهـــــا ... لَمْ تُحصَ فِي الحَشَرَاتِ وَ الدِيدانِ
وَلَسَوْفَ تَضْطَربْ البِلَاد لِصيحةٍ ... مِنهم تَفتّح مُغـــــــلقَ الآذانِ[3]

ويقول أيضًا في موضعٍ آخر:

يَا عَالمًا بِصروف هَذا الدَهر قُلْ ... مَـــــاذا دَهَا لبنان مِن وَيلاتِهِ؟
أَوْ ذَاكَ لبنَانَ الذي عَهدي بـــهِ ... خَلَعَ الـــجَمَالُ عَلَيهِ خَير هَبائِهِ؟

***

منباتُ كلِّ فَتى كَأنَّ الرَعدَ فِـــي ... صَيْحَـــــاتِهِ وَالبرق فِي غَاراتِهِ

---

[1] - مقدمة ديوان القروي، ص6.
[2] - إلياس فرحات شاعر العروبة في المهجر، د. عيسى الناعوري، مقدمة الكتاب، ص10، دار فضاءات، عمان،2013.
[3] - الأعاصير، رشيد سليم الخوري، من قصيدة (الاستقلال حق لا هبة)، ص42، مطبعة الشرق.

***

قَالوا أَتَعْشَقه وَهذي حَالـــــــه يَـــــا حَبَّذا وَطَني عَلَى حَالَاتِهِ!

العَيش حـــــلوٌ في سَبيل رقيِّهِ وَالمَوتُ أَحْلَى في سبيلِ حَيَاتِهِ[1]

ويقول أيضًا :

زَعَمَ الأغْرَارَ أني شَـــــــــاعر ضَيْـــق الآفـــاق مَحْدُود الحدُود

وَستُبلى وَطنياتي التـَــــــــي رَفلَتْ مِنهـــــا البَوادي فِي برود

***

وَالتي يَحْسَد هدابَ الضُحَـــــى خَيطها المَنسول مِن حَبل وَريدي[2]

فقد أدرك الشاعر المهجري رسالته إزاء قومه وأمته، إذ جعل الاستعمار في موقفٍ التحدي الواعي لكل الأوضاع المسببة في بلادهم، (فقد كان في بلادهم الاستعمار الفرنسي، وكانت هناك معارك ومذابح اشتبك فيها الشعب مع جلاديه، وكان شعراء المهجر وراء كل واقعة، ووقود كل انتفاضة)[3].

وقد كانت الهجرة ذاتها في بعض جوانبها نفورًا من الحياة في أرض يسيطر على مقدراتها المستعمرون، وقد عبر عن ذلك الشاعر القروي في قوله:

أبِيتً جوارِها أرْضَـــــا بِغَير الـــذُلِ لاتَرْضَـى

بِلاد خَسَفها أمْســـــــى عَلَى أبْنَائِهـــا فَرَضا

عَجِيب أنَني مَيْـــــــت وَعَيْني لَمْ تَدق غَمْضا

أحْسُ يَد الرَجَاء فَـــــلا أحْسُ لِقَلبهِ نَبَضَـــــا

همُوم فِي النَواحِي الصَد رِ يَزْحَم بَعْضُها بِبَعضَا

بِلادي ...أيْنَ سَيْفُ العَزْمِ فِي وَجْه القَضَـــا يَنْضَى؟[4]

---

[1] - الأعاصير، رشيد سليم الخوري، من قصيدة (عيد استقلال لبنان)، ص52،53.

[2] - ديوان القروي، ص377.

[3] - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص330.

[4] - ديوان القروي، ص 19.

ويخاطب الاستعمار قائلاً:

كَـــأنَ لَمْ يَنبك التَأريخ مَاذا ... يَكْون إذاَ الفَتَـــــى العَربي هَاجا
وَأنَا بِالأسنة وَ المَواضِـــــى ... نَقوم مَنْ نَرى فِيـهِ أعْوِجَـــاجَـــا
وَمَا زِلنَا كَما كُنا قَدِيمَـــــــًا ... نُفَاجِىء كَالنسُــورِ وَلانَفاجَـــــا
وَإنْ لَمْ تَنْفَع الشَكوى عِلاَجَـا ... وَجَدْنَـــــا بِـالسِيوفِ لَهَا عِلاَجَا
تَميدُ بِنا الجِبَال إذا زَحَفْنَـــا ... وَتَــرْتَج الســـهُولَ بِنا ارتجَاجَا[1]

ويقول في قصيدته (إلى دول الاستعمار):

جَهَلْتِ لِسَانَنَا وَلَنَـــــــــا حَديثٌ ... يُتَرجَمُهُ لَـــكُمْ عَنْا الحَســـــامْ
يَبْلغهُ مَكَـــــــــانَ الفَهْمِ مِنْكُمْ ... وَصِيغَتُهُ كَلومٌ لاَ كَـــــــلاَمْ [2]

وقد ظل بعد الهجرة يواصل المقاومة في غير كلل....

لقد اختار الشعراء في المهجر هذا الطريق عن إيمان ووعي، وقد رثى القروي الشهداء الذين أعدموا بقصيدته التي يقول فيها:

خَيْرُ المَطــالعِ تَسليمٌ عَلى الشُهدا ... أَزْكَى الصــلاةِ عَلَى أَرواحِهم أبَدَا
فَلتَنحنِ الهـــــامُ إجلالًا وَتكرمةَ ... لِكُـــلِ حُرٍ عَن الأوطانِ مَاتَ فَدَى
يَا أنَجم الوَطن الزُهر التي سَطَعَت ... فَي جَوّ لبنان للشَعب الضَليل هَدَى
قَدْ عَلّقتكم يَدُ الجَاني مُـــــلطّخةٌ ... فَقَدَسّـــــت بِكمُ الأعوادَ وَالمَسَدا
حَتى غَدا كلُّ حُرٍّ لَو نَصبتَ لَـــه ... حَبـــــل المنون عَلى هُدَّابه سجدا

***

أَكَرمْ بِحَبـــــلٍ غَدا لِلعَرب رابطةً ... وَعُقدةٍ وَحَّدَت لِلعَرَبِ مُعتقـــــدا[3]

وتتوالى الدعوات والصرخات وفي أثنائها لاينسى هؤلاء الشعراء بعض الأبطال الذين يحاولون الوقوف في وجه الظلم، والقيام بالثورات وإن كانت صغيرة لاتستطيع تحقيق

---

[1] - ديوان القروي، ص360.
[2] - السابق،ص400.
[3] - الأعاصير، رشيد سليم الخوري، من قصيدة (الشهداء)، ص56.

أغراضها فهي خطوة على الطريق، وكانوا يتابعون الثورات في العالم العربي ويساندونها بأقلامهم[1].

(وبزغ من بينهم من يتسربل أردية فضفاضة، ويدعي أنه ينتمي إلى الإنسانية في عمومها و شمولها، ويتهم النزعة القومية والوطنية بأنها نزعة ضعيفة لاتليق باتساع أفكاره، وانطلاق آماد اهتماماته .. وقد كان في مقدمة هؤلاء جبران و نعيمة، وهما شخصيتان على جانب كبير من الخطورة ومن بعد هذا التأثير..)[2].

لكن هذا لا يدل على عدم حبهم لوطنهم أو عدم أخذه بعين الاعتبار، بل اتخذوه على قالبٍ ثان، وقد ذكر الدكتور صابر عبدالدايم في كتابه أدب المهجر: (أن الوسيلة التي لجأ إليها أدباء المهجر الشماليون أخصب خيالاً و أمتع فنًّا من التعبير المباشر الذي لجأ إليه أدباء المهجر الجنوبي)[3].

فقد كان جبران ذا فكر وطني خاصةً في تلك الفترة التي عاشها في حياته أيام السلطة العثمانية ومن بعدها الاحتلال الفرنسي للبنان، وقد كتب كثيرًا عن رجال السياسة، وما زال الكتاب إلى الآن يكتبون عن رجال السياسة مقلدين جبران، وأفضل ما كتبه جبران **(لكم لبنانكم ولي لبناني)**[4].

وإنَّ كتاب النبي، الذي قدم فيه جبران صورة للغربة في أمريكا، وأشواق عليا إلى وطنه الذي غاب عنه ثم رجعت سفينته إليه مرة أخرى، ومرداد، والفلك، وقمة المذبح، كلها تكون صورة معبرة عن واقعية حب الوطن وخاصة جبل صنين.

وكذلك جبران لَمْ يستطيع أن يحصر ولاءه في وطنه وقوميته، فقد اعتمد على ادعاء عريض هو أنه إنساني النزعة، فيقول: **(أحب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي، وأحب بلادي بقسم من محبتي لأرض وطني، وأحب الأرض بكليتي لأنها مرتع الإنسانية)**[5].

وكذلك دعا أمين الريحاني إلى تحرير الأمم العربية وتطهيرها من الاستعمار لأن الستعمار توأم الموت، والحرية لاتأتي إلاَّ بالقوة فيقول:

---

[1] - ينظر العصبة الأندلسية، د. نعيمة مراد، ص133.
[2] - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص332.
[3] - أدب المهجر، د. صابر عبدالدايم، ص 103.
[4] - موسوعة جبران خليل جبران، جوزيف الخوري طوق، ص136، المجلد الثاني والأربعون، دار نوبليس للنشر، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان، 2000.
[5] - المجوعة الكاملة لمولفات جبران، ميخائيل نعيمة، ص229.

(لاحياة إلاَّ بالحرية، ولاحرية إلاَّ بالسيف)[1]

وكانت حرية الأمة حلمه الذي يملأ عليه كل خيال، فحين وقف على جسر بروكلين، وسبحت به التأملات في حال وطنه الأسير، وفي الشرق المعني، نجده يتغنى في أسى وفي أمل:

(متى تحوّلين وجهك نحو الشرق أيتها الحرية؟)

هنا يذكر أمنيته حول حرية بلاد.....ويبقى في موقف متسائل (متى يمتزج نورك بنور هذا البدر الباهر، فيدور معه حول الأرض، ويضيء ظلمات كل شعب مظلوم؟)[2]

وواضح مما قدمنا من الأمثلة الصادقة على الصراع الحاصل لدى شعراء المهجر ضد الاستعمار، وأستطيع القول بأن جُلَّ شعراء المهجر لم يكن لديهم تعابيرمشابهة تُظهر حبهم لأمتهم والوقوف ضد الاستعمار، لكن هذا ليس دليلًا على الشك في انتمائهم للوطن، لأنه قَلَّ أن خلا شعر واحد منهم من القصائد الوطنية، فقد جاهد الشعراء المهجريون من أجل حبهم للأمة والوقوف ضد الاستعمار، فقد عبروا عنها بأنواعٍ شتى، لكن نرى أن الصراع الحاصل بينهم والاستعمار أتَى بنوع من الانتصار لصالحهم، لأن الاستعمار مهما أطال في ممارسة القمع، فسوف يأتي يوم يتطهرالوطن من سطوته وتتمتع الأمم بالاستقلال والحرية، فعلى مدى مئات السنين تعاني الأمم العربية من الاستعمار،لكن مع الأسف إلى الآن مستمرة.

وهكذا سارت رحلة شعر المهجر عبر صراعاتها سواء مع أنفسهم، أو الطبيعة، أو المجتمع..... وللصراع بقاؤه.

---

[1] - الريحانيات، أمين الريحاني،ص144، الجزء الثاني، يوسف صادر للطبع، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان، 1923.

[2] - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص72.